جامعة دمياط

كلية التربية

الفرقة الثالثة – لغة عربية / عام

مقرر الشعر الأندلسي

(رثاء المدن والممالك)

تنبيه:

هذه المحاضرة إرشادية يتم التركيز فيها على النقاط الأساسية

بعض الأمثلة يتم الإشارة إليها في الكتاب مع رقم الصفحة

" إن الظروف السياسية التي ألمت بشبه جزيرة أيبرية منذ سقوط الخلافة الأموية وانفراط عقد الرقعة الأندلسية، وتوزعها على شكل ممالك ودويلات صغيرة في أوائل القرن الخامس الهجري، حتى سقوط شبه الجزيرة كلها بيد النصارى سنة ٨٩٧هـ، أدت هذه الظروف إلى حالة من التوجس والتوقع والترقب لدى الأندلسيين، وأوجدت إحساساً بالرعب المستمر والخوف المتسلط على الحواس من العدوان الخارجي المتربص بهم باستمرار من أعالي جبال الشمال، فالمناورات والحروب كانت قائمة لا تهدأ إلا لتبدأ، وليست سنوات السلم والهدوء، في الحقيقة، إلا فرصة لأخذ الأنفاس وتحشيد القوى المادية والبشرية من أجل حرب جديدة، وهكذا نقرأ عبر التاريخ الأندلسي سقوط المدن واحدة عقب الأخرى، وفي فترات متفاوتة... وما أن حلَّ الربع الثاني من القرن السابع الهجري حتى أخذت البلاد الإسلامية تتهاوى بيد النصارى بشكل محزن مثير للرعب، وتكتسح من قبل جيوشهم الزاحفة بسرعة مذهلة، فسقطت قرطبة وبلنسية وجيان وطرطوشة ولاردة وإشبيلية، وغيرهما

من المدن الإسلامية، ولم يبق بيد المسلمين غير غرناطة التي ظلت قائمة حتى عام ٨٩٧هـ"[١].

لقد ضاعت الأندلس، وعاشت الأمة الأندلسية سلسلة من المآسي والنكبات بسبب الخلاف والصراع السياسي الداخلي والخارجي الذي أدى إلى تتابع سقوط المدن الأندلسية وخرابها، ولقد أذكت هذه المحن والنكبات لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكوا مدنهم بكاءً حاراً، وتفجعوا على ضياعها، ووصفوا على ما أصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير، وما حاق بأهلها من صنوف العذاب وضروب الذل والهوان فيما عرف برثاء المدن والممالك " ذلك الغرض الذي نبعت سماته وأفكاره من طبيعة الاضطراب السياسي في الأندلس، وكان مجال إبداع في الشعر الأندلسي"[٢].

وهذا اللون من الشعر– شعر الرثاء الوطني – كما يسميه عبد الحميد شيحة " يترجم عن شعور الأندلسيين وإحساسهم بذهاب دولهم وسقوط مدنهم ترجمة صادقة تعكس تعلقهم بوطنهم وحبهم له، وهو بهذا المفهوم يعبر عن قيمة إنسانية كبيرة مستمدة من قيمة الموضوع الذي يعالجه، ومن ثم ينبغي أن يأخذ حقه من الدراسة والإنصاف".[٣]

ولقد كان هذا الفن – رثاء الدول والممالك – من حيث النشأة موضع خلاف بين الباحثين، هل هو غرض أندلسي ابتدعه الأندلسيون؟ أم أنه كان معروفاً بالمشرق وتناوله الأندلسيون على سبيل المحاكاة والتقليد عندما حلت بهم النكبات؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن الأدب الأندلسي بجملته بما فيه رثاء المدن والممالك لم يأت بجديد، ولم تكن له الشخصية المميزة، بل هو تقليد لأدباء المشرق، ودوران في فلكهم، ومن أصحاب هذا الرأي **شوقي ضيف**

---

[١] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: محمد مجيد السعيد، ص ٣٠٧–٣٠٨.

[٢] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، التاسعة، ٤٣٧.

[٣] الوطن في الشعر الأندلسي دراسة فنية: عبد الحميد شيحة، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، ص ١٢٥.

وذهب فريق آخر من الباحثين إلى القول بأن رثاء المدن والممالك فن أندلسي لم يظهر في المشرق العربي إلى في فترات متأخرة، ومن هؤلاء **أحمد أمين**

أما **الطاهر مكي** فكان وسطاً الرأيين السابقين، حيث رأى أن رثاء المدن والممالك له أصول مشرقية إلا أنه ينفي تأثر الأندلسيين بالمشارقة في هذا الفن" **وحاصل القول في هذه القضية أن رثاء الدول والمدن مبثوث في الشعر العربي ككل في المشرق والأندلس، ولكنه اشتهر في الأندلس حتى اقترن ذكره بأدبها لما يلي:**

أولاً: تتابع الأحداث المأساوية، فقد ظلت الحروب مشتعلة بالأندلس على مدة خمسة قرون تقريباً... وقد كانت الحروب تصطبغ بالصبغة الدينية الخالصة، فهي تطاحن من أجل البقاء بين عقيدتين إسلامية ونصرانية، لذلك نجد المعاني الإسلامية هي أهم ما يتفجع عليه الشاعر ويتأسف، كالمساجد التي تحولت إلى كنائس...وهذا الأمر ما وجد في شعر المشرق إلا حينما سقط بيت المقدس وفعل الصليبيون به تلك الأفاعيل المعهودة عنهم...

ثانياً: إن معظم المؤرخين الأندلسيين الذين أوردوا لنا الأشعار التي قيلت في رثاء الأندلس هم أدباء وشعراء في الوقت نفسه، فكان أن مزجوا الحوادث التاريخية بالأدب مزجاً يشعر القارئ بتفاعلهم مع الأحداث التي أوفوها حقها من التحليل الدقيق كفعل ابن بسام صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وابن سعيد صاحب المغرب في حلى المغرب، ولسان الدين بن الخطيب صاحب الإحاطة وغيرهم كثير"[٤]

أما عن أثر السياسة في رثاء المدن والممالك في الأندلس بصفة عامة، فهذا الشعر كان وليد الأحداث السياسية المتلاحقة والمتتابعة، ونتاج الصراع المستمر بين القوى السياسية داخل الأندلس، وبين الأندلسيين وقوى النصارى المتربصة بهم، فضلاً عن الخلاف السياسي الذي وقع، أحياناً، بين الأندلس ودول العدوة الإفريقية مما أضعف الدولة وأنهك قواها، وجعلها تتساقط مدينة تلو الأخرى بيد النصارى، الأمر الذي أذكى لوعة الشعراء، وفجَّر قرائحهم، فبكوا مدنهم بكاءً حاراً، وتفجعوا على ضياعها، ووصفوا ما حاق بأهلها،

[٤] الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس: شاهر عوض الكفاويني، ص ٤٦٦.

حتى غدا هذا الفن أبرز فنون الشعر السياسي في الأندلس قولاً وفعلاً وتجربة وصدقاً وعاطفة وأصالة، ومن ثم كتب له البقاء والخلود.

لقد كان الشاعر الأندلسي قادراً على تحليل دواعي السقوط وتسجيلها ضمن قصائدهم التي رثوا فيها مدن الأندلس وممالكها الزائلة، وقد تعددت أسباب السقوط[٥]، ويأتي السبب السياسي في مقدمة الأسباب التي أدت إلى سقوط الأندلس.

" لقد أشارت المادة الشعرية إلى نقاط الضعف السياسي التي أدت إلى مثل هذه الحالة المزرية، فلمَّحت إلى ما كان يدور داخل غرناطة من صراع بين الأسر الكبرى ذات الحل والعقد، ذلك الصراع الذي ملأ قلوب المتناحرين فيما بينهم حقداً وضغينة، وأضعف ما كان في نفوس ذوي النوايا الحسنة من همة وعزم"[٦].

وقد صور الشاعر **أبو العباس أحمد الدقون ت٩٢١هـ** الخلاف السياسي الواقع بين الأندلسيين، ذلك الخلاف الذي شغلهم بمصالحهم الشخصية، وصرفهم عن نصرة المجاهدين، فقال: (الطويل)

والمسلمون من الأضغان قد مُلئت قلوبهم وأبوا تسديد أخلال

والحق مختلفٌ والحُمقُ مؤتلف والكل منصرف عن نصر أبطال[٧]

تطبيقات:

١-ما أسباب ازدهار رثاء المدن والممالك في الأندلس؟

---

[٥] **قسم جمعة شيخة أسباب السقوط إلى :**

١- عوامل تاريخية واقعية ٢- عوامل غيبية تبريرية ٣- عوامل أسطورية خرافية.

ينظر. صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي: جمعة شيخة، مجلة الدراسات الأندلسية، الجمهورية التونسية، العدد السابع، ١٤٢١هـ- ١٩٩٢م، ص٢٠.

[٦] صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي: جمعة شيخة، ص١٩.

[٧] أزهار الرياض: المقري، ج١ص١٠٥.

٢-كان هذا الفن – رثاء الدول والممالك – من حيث النشأة موضع خلاف بين الباحثين، هل هو غرض أندلسي ابتدعه الأندلسيون؟ أم أنه كان معروفاً بالمشرق وتناوله الأندلسيون على سبيل المحاكاة والتقليد عندما حلت بهم النكبات؟ ناقش ذلك.